نظرية المعرفة

تعريف نظرية المعرفة

نظرية المعرفة قديمة قدم التفلسف وإن لم تقرر لها أبحاث مستقلة إلا منذ عهد الفيلسوف الانجليزى جون لوك *John Locke* إذ كان أول من حاول وضع هذا البحث فى صورة العلم المستقل، وذلك فى كتابه « مقال فى العقل البشرى *An Essay Concerning Human Understanding* » الذى نشر سنة ١٦٩٠ م . ويعد هذا الكتاب بحق أول بحث علمى منظم يتناول بالفحص والدرس أصل المعرفة وماهيتها وحدودها ودرجة اليقين فيها . ولعل الذى حدا به إلى هذا البحث ما ارتآه من تضارب شديد واختلاف بالغ فى المشاكل المتصلة بما بعد الطبيعة والأخلاق والدين .

ولا نكاد نجد قبل «لوك» محاولة جدية واضحة لدراسة مسائل المعرفة دراسة مستقلة . فعند أفلاطون تنتظم الجدليات هذا الضرب من البحوث ، وعند أرسطو تدخل بحوث المعرفة فى دراسات « مابعد الطبيعة » . ولم يعن كل من أفلاطون وأرسطو بوضع حد فاصل بين موضوعات المعرفة ومسائل مابعد الطبيعة ، ولا بين هذه الموضوعات من جهة والدراسات المنطقية الخالصة من جهة أخرى .

ويُعد « كانت » بعد « لوك » أعظم من كتب فى نظرية المعرفة وأرسى قواعدها على أسس علمية سليمة . وسندرس ذلك كله تفصيلا حين نستعرض تطور نظرية المعرفة منذ القدم إلى يومنا هذا . وحسبنا الآن أن نلمّ فى عجالة بموضوع هذه النظرية وحدودها . فلا ريب أن الإحاطة التامة بمسائل

المعرفة أصبح من مستلزمات التأمل الفلسفي. بل إن في وسعنا أيضا أن نقول إن نظرية المعرفة تحتل اليوم في نظر الكثير من المفكرين مكانة الفلسفة ذاتها. حتى أن البعض يرى أنها هي الفلسفة، إذا كان لنا أن نعتبر الفلسفة على المفهوم الحديث، بحثاً علمياً منظما.

ولا جدال في أن لمبحث المعرفة أهميته وخطورته وإن تعددت فيه الآراء وتباينت وجهات النظر في تحديد المشاكل التي تدخل فيه. ومهمتنا الآن أن نوجز هذه الآراء، ونخلص في نهاية الأمر بمفهوم واضح لموضوع المعرفة ومجالها.

فثمة تفسير للمعرفة بأنها تحصيل العلم، أو العمليات العقلية التي نتوسل بها إلى تحصيل العلم. ويترتب على هذا التفسير أن يكون البحث في المعرفة فرعاً من علم النفس الذي يختص دون منازع بدراسة عمليات الإحساس والإدراك والتذكر والتخيل والإنتباه والتفكير وما على نسقها. حينئذ تنقطع صلة نظرية المعرفة بأهم المسائل الخاصة بحدود العلم الإنساني وصدقه وتعجز عن البحث في مشاكل العلم العامة، كمشكلة الذات والموضوع وتطور العلم، وتنحصر مهمتها فحسب في تبيان الوسائل التي يتم بها تحصيل العلم.

وثمة تفسير آخر لنظرية المعرفة وهي أنها البحث في المعرفة التي تم لنا اكتسابها. ولكن قد يؤدي هذا التفسير إلى التباس موضوعها بموضوع المنطق والعلوم الجزئية. فالمنطق يبحث في القوانين الصورية للفكر والعلوم الجزئية كل منها يبحث في مادة المعلومات التي يتألف منها موضوعه. فلن يبقى للمعرفة حينئذ إلا البحث في مادة الفكر في صورتها العامة.

بيد أن مجال المعرفة أوسع من ذلك وأشمل، فهى تبحث فى المعقولات العامة التى تشترك أغلب العلوم الجزئية فى الانتفاع بها، وتعد هذه المعقولات دعامة متينة لا غنى عنها فى هذه العلوم. على أننا يمكننا أن نلخص أهم مباحث نظرية المعرفة فيما يلى:

١ ـ تحاول تعريف «مادة العلم» أى تنظر فيما يمن العلم به من الأشياء أو بعبارة أخرى تناقش الشروط التى ينبغى توافرها لكى يتم هذا العلم. ويدخل فى ذلك:

ا ـ التفرقة بين المحسوس وما هو خارج عن دائرة المحسوس، أى بين ما يدخل فى مجال التجربة وما يخرج عنها.

ب ـ التمييز بين ما يدركه العقل إدراكا بديهياً فطريا، وبين ما يتم اكتسابه عن طريق التجربة.

٢ ـ تبحث نظرية المعرفة فى التمييز بين المعلومات الذاتية والمعلومات الموضوعية. فكل ما يتصل بالذات المدركة يرجع الى علم النفس، وكل ما يتعلق بالموضوع المدرك يرجع فيه الى العلوم الطبيعية

٣ ـ تبحث كذلك فى موضوع الوجود والتغير.

ولمباحث المعرفه بوجه عام أهمية بالغة، وهى من أشد مباحث الفلسفه العامة عمقاً وخصبا ومن أكثرها صعوبة وتعقيداً. وهذه المباحث تتطلب من العاكف عليها قدرة فائقة فى التأمل وتمرساً سليما بفهم المسائل المعنوية البحتة وهى تعتمد كذلك على ما تحققه العلوم الجزئية من تقدم له أوثق صلة بمعرفتنا بمادة العلم عامه. ومن ثم فالمدارس فى نظرية المعرفة لم

تتحدد بعد تحدداً واضحا . بيد أن ما يقال بصدد نظرية المعرفة يمكن أن يقال أيضا فيما يتصل بالعلوم الجزئية ، فهناك فى هذه العلوم نظريات لاتزال مثار خلاف وموطن مناقشه بين العلماء

مشكلة اصطار المعرفة

ينصب التفكير الجوهرى للفيلسوف فى أيامناهذه على المعرفة . وبينما لايعنى العلماء إلا بموضوع المعرفة ، يتأمل الفيلسوف متجها نحو ذاته ، دارسا عناصر معرفته نفسها محاولا توضيح قيمتها وتبيان حدودها.

وقد اتسعت العناية بمسألة نقد المعرفة اتساعا عظيما فى الفلسفة المعاصرة . فقد ثبت أن الفلسفة لا تستطيع أن تصل فى دراسة مسئلات الوجود *Les Problèmes Ontologiques* إلى نتائج ذات شأن من الوجهه الموضوعية ، فليس ثمة مذهب ميتافيزيقى قد حالفه التوفيق فى أن يظفر برضى الناس جميعاً وإجماع الأذهان على صوابه وجدواه . وهذا يفسر لنا ظاهرة جديرة بالاعتبار أعنى بها أن الفلسفة فى تطورها قد سلكت طريق نقد المعرفة *Critique de la Connaissanee* فإذا لم يكن فى وسعنا أن نصل إلى الوجود فى صميم كنهه أو ليس ينبغى لنا أن نتجه إلى أنفسنا ، إلى ذواتنا لدراستها ؟ وإن دراسة الإنسان أو الذات العارفة ـ كما يقول الأستاذ « ألكييه » *Alquié* أستاذ تاريخ الفلسفة بجامعة باريس ـ لتجلب لنا معلومات ذات نفع عظيم ، وتتصل هذه المعلومات بطريقة المعرفة وقيمتها وحدودها . ومن ثم تنهض فلسفة جديدة ، فلسفة حية فعالة هى الفلسفة النقدية *La Philosophie Critique*

وتتوخى أن تحل تدريجيا محل الفلسفة الأنتولوجية *La philosophie Ontologique* أو المعنية بشئون وجود العالم. وليس أدل على صدق هذه النظرة مما نلاحظه فى الدراسات الفلسفية المعاصرة من حرص على اتخاذ التأمل فى العلوم أساسا للبحث الفلسفى .

بيد أننا لا ينبغى أن نغفل ما لقيه المذهب الوجودى *L. Existentialisme* من رواج فى أيامنا هذه . ففى هذا المذهب نجد المشكلة الرئيسية لم تعد مشكلة المعرفة بل مشكلة وجود الانسان *L'Existence de l'homme* . وهذا الوجود الإنسانى يعتبر فى نظر هذا المذهب مبدأ الحقيقة ، ومنبع القيم . ويستبدل مذهب الوجوديين بالمشكلة الكلاسيكية الخاصة بعلاقة العقل بموضوعاته ، — والفلسفة الكلاسيكية (قديمة وحديثة) تتصور العقل تصوراً كليا ، تنطبق مبادئه وأحكامه على جميع الأذهان — مشكلة مكانة الوعى الإنسانى فى العالم : ما يعانيه هذا الوعى من شواغل وهموم ، وصلة وعى *Conscience* كل فرد بوعى غيره من الأفراد من ناحية ، وصلته بالطبيعة من ناحية أخرى . ويرى أنصار الوجودية أن الحقيقة البشرية لا يمكن أن تنحصر فى المعرفة ، فإن علاقاتنا هى علاقات وجودية *rapports existentiels* .

إلا أننا ينبغى أن نتساءل : كيف يمكن رد هذه العلاقات إلى الحقيقة؟ وأى نوع من أنواع العلاقة قائم بين الموجود والحقيقة ذاتها ؟ . هذان سؤالان خالدان خلود التفكير البشرى ، نصادفهما كلما تفلسفنا ، ويقع المذهب الوجودى فى حيرة إزاءهما ، فدراسة المعرفة لازمة إذا شئنا البحث فى معنى الحقيقة . ولكن ماهى الحقيقة ؟ .

ماهى الحقيقة ؟

تقلبت فكرة الحقيقة *idée de vérité* فى غضون التاريخ الفلسفى بين مضمونات متعددة نحاول أن نجملها فيما يلى :

١ — فالتعريف الكلاسيكى للحقيقة يذهب إلى القول بأنها تتمثل فيما يتم من توافق بين العقل والأشياء أو بين الفكر وموضوعه . ومذهب التسليم اليقينى أو المذهب القطعى *Dogmatisme* يأخذ بهذا التعريف دون أن يثير بصدده صعوبة ما . إذ يرى هذا المذهب أن فى مقدور العقل أن يتمثل الواقع كما هو . ومن ثم تصبح حقيقةً كلُّ فكرة يصدرها الذهن على الواقع ، وكل حكم يثبت علاقة واقعية .

٢ — ولكن بعد اندثار النظرة القطعية أو الدجماطيقية ، اختلف معنى الحقيقة . فالشىء ليس معطى لنا ، ويجب إذن معرفة الحقيقة لا من حيث علاقتها بالواقع ، بل من حيث صلتها بالذات العارفة . فالفيلسوف الألمانى « كانت » *Kant* يرى أن العلم يعتبر حقيقياً بمعنى أننا على ثقة من أن قوانينه تتحقق فى كل تجربة ممكنة . ولا يكون الأمر كذلك إلا إذا كانت التجربة مطابقة لضرورات عقلنا . فالحقيقة إذن نسبية فى نظر الإنسان . ويرى « كانت » كذلك أن الحقيقة كلية وثابتة . ولكن العلم جعلنا نعتاد اعتبار الحقيقة فى تقدم ، وأنها ليست معصومة من الخطأ تماماً ، بل عرضة له على نحو ما . ومن ثم نجد أن عدداً من الفلاسفة قد رغبوا فى تعريف الحقيقة لا على أنها علاقة قائمة ، بل على أنها علاقة فى دور التكوّن .

٢ ـ وبعض الفلاسفة يرون فى المعرفة وسيلة تلاؤم الكائن مع بيئته *un moyen d'adaptation*، والإنسان فى نظرهم هو كائن حى قبل أى اعتبار آخر ؛ ودراسة علم النفس العقلى *Psychologie Intellectuelle* تظهر لنا على أن العمليات العقلية التى تتألف منها المعرفة البسيطة ـ الإدراك والتداعى بين المعانى ، والتجريد ، والتعميم ، والبرهنة ـ هى نتيجة لضرورات حيوية لوظائف بيولوجية . والعلم الذى ينبع من المعرفة البسيطة يتجه مثلها إلى هدف عملى نفعى . ومن هنا يأتى تعريف الحقيقة بأنها تعبير عن تلاؤم ناجح ، ودلالة على فكرة نافعة .

وبهذا المعنى نرى أن اتباع المذهب البراجماطى *Pragmatisme* وعلى رأسهم وليم جيمس(١) ـ وهم يأخذون بأن الفكر لاحقٌ للعمل لا سابقٌ عليه ـ يتخذون تصوراً ديناميكياً (تطورياً) *Dynamique* للحقيقة ، ويرومون تعريفها من حيث علاقتها بالفعل أو العمل . فالفكرة فى نظرهم ليست إلا أداة للعمل وهى من ثمّ لا تشغل من العقل إلا لحظةً فحسب . والفكرة الحقيقية هى من ثم الفكرة التى يتحقق نفعها كأداة ناجحة للعمل . فتعريف الحقيقة فى نظرهم ينبنى على علاقتها بالفرد وما تجلبه له من نفع . فالفكرة حقيقة إذا كانت نافعة ، وحقيقية لأنها نافعة . بيد أن هذه المنفعة والحقيقة بالتالى يمكن فهمها بطرائق عديدة . ومن قبيل ذلك أن القانون الطبيعى *La loi physique* لأنه يتيح لنا أن نؤدى رسالتنا العملية فى هذا العالم . والفكرة الدينية حقيقية لأنها تبث فينا الطمأنينة وتشجع فينا الثقة بأنفسنا ، والفرض العلمى حقيقى لأنه نافع للذهن ، ويتيح لنا أن نرى العالم بطريقة ميسورة .

---

(١) راجع « البراجماطية » فى فصل قادم من هذا الكتاب .

والبعض الآخر يذهب فى تعريف الحقيقة مستنداً إلى قضايا اجتماعية ويحاول تعريفها بما لها من طابع كلى *Universalite* ، ورجال الاجتماع على ما نعلم ينصب اهتمامهم الدائب على إثبات دور المجتمع فى تكوين المعرفة والتفكير المنطق ، فهم يرون أن التفكير اللاشخصى *Pensée impersonnelle* منشؤة التفكير الجمعى *Pensée collective* ، فالحقيقة فى نظرهم هى تلك التى يوافق عليها جميع الناس .

والمذاهب التى عرضنا لها نراها تعرّف الحقيقة باعتبارها مستقلة عن موضوعها ، ومن حيث صلتها بالذات العارفة أو الإنسان (الذوات العارفة أو الأناسى فى حالة المدرسة الإجتماعية) . وهذه المذاهب فيما يبدو تسوقنا إلى أن نعتبر حقيقياً كثيراً من الأفكار المتناقضة . فإذا أخذنا بالمعيار البراجماطى ، لرأينا أن فكرة ما نافعة للفكر يمكن أن تتعارض مع فكرة أخرى نافعة للقلب ، وإذا أخذنا معيار الكلية *universalité* ينبغى أن نقول إنه فى العصور الوسطى كان حقيقياً بإجماع الناس أن الأرض ثابتة فى مركز العالم .

وبعبارة أخرى يمكننا القول بأن هذه النظريات تنتهى حتما إلى مذهب الكثرة *Pluralisme* ، وهذا ولا ريب هدف البرجماطية إذ يرمى هذا المذهب إلى إثبات أن ليس هنالك حقيقة واحدة بل حقائق متعددة .

مثل هذه التصورات تسلب العقل ما له من قيمة مطلقة هى ثروة الجنس البشرى . ونحن لا غنى لنا عن العقل من حيث هو عامل على الإتساق بين أفكارنا ، وسبيلنا إلى التوصل إلى أحكام علمية موضوعية . ولا ريب أن التفكير الحقيق هو الذى يتصل بالموضوع أى بالأشياء الخارجية .

ونحن قد نجد فى فكرة لا تتفق مع الواقع نفعاً ومتاعاً ، وقد نرضى عنها جميعاً . ولكن هل يحدو بنا هذا إلى القول بأن فكرة كهذه هى فكرة حقيقية ؟ عندئذ نكون قد ألبسنا كلمة حقيقة معنى يأباه العرف العلمى . فإن النجاح والشمول أبعد عن أن يؤلفا جوهر الحقيقة . بل هما دلالتان نحسب على هذه الحقيقة ومن ثم فنجاح القوانين الطبيعية المطرد يدل على أن هذه القوانين تتفق مع الواقع . وعلى ذلك لا ينبغى أن نقول إن فكرة ما هى حقيقية لأنها ناجحة ، بل ينبغى أن نقول إنها ناجحة لأنها حقيقية .

وعلى ذلك لا يمكننا تعريف الحقيقة دون قياسها على الواقع . وينبغى أن نعلم أن أفكارنا ليست صوراً مطابقة للأشياء ونسخاً كاملة منها فليس هناك تطابق مطلق بين الفكر وموضوعه كما يزعم مذهب اليقين أو المذهب القطعى الدجماطيقى *Dogmatisme* . ولكننا يمكننا القول بأن ثمة تجاوباً وثيقا ووشائج متينة بين التفكير والواقع .

وليس كل شىء يأتى من الذات ، بل الحقيقة ثمرة تعاون وتضامن بين العقل والأشياء . فاذا كنا لا نستطيع أن نفكر الواقع ، إن صح هذا التعبير ، ففى وسعنا على أقل تقدير أن نفكر بمقتضى هذا الواقع . وبهذا المعنى تكون الفكرة الحقيقية هى الفكرة المطابقة للواقع . بيد أننا لا نعرف على الدقة طبيعة العلاقة بين العقل والأشياء . فنحن لا يمكن أن نتأمل فى واحد من هذين الحدين ـ العقل والأشياء ـ دون أن نتأمل فى الآخر : فكل منهما لا غنى له عن الآخر : فمعرفتنا من ثم معرفة نسبية .